يا مطرة رُخِّي

يا مطـرة رخي رخـي .. رخي على سـطوح بيتنا
لكن إيـــــــاكِ تبـوخي .. بردك على ريش كتاكيتنا
رخـــي رخـــي يا مطرة .. واسـقي شـجرنا وبقرتنا
وابعدي لسعتك الخطرة. .. عن ورايــة في جنينتنا

تـأتيني أصـواتهم عبـر النافـذة حلـوة عذبـة، فتحـرق قلبـي الصـغير الـذي يتـوق إلـى مشـاركتهم اللعب تحت المطر فـي هذا الجو الشتوي البديع، أجلس في غرفة مطلة على الشارع أراقب حبات المطر وهي تغسل أوراق شجرة الصفصاف العتيقة القابعة أمام البيت.

تداعب رائحة المطر أنفي الذي أشعر بازدياد حجمه يومًا بعد يوم، كما يزداد معه قبح وجهي، وملامحي المُنفّرة.

_ لقد خفّ المطر قليلًا يـا بنـي، اخـرج لتلعب مـع الأولاد أمـام البيت.

_مراقبة المنظر من هنا أجمل يا أمي.

يستمر صوت الأطفال أمام البيت وقد بدأوا يلعبون الكرة، تنـازعني نفسـي أن أخـرج إلـيهم، بينمـا جـزء منـي يصـرخ فـيّ محذرًا «إياك أن تفعل» قررت الخروج إلا أنني تذكرتُ يوم كنتُ في فناء المدرسة في اليوم الرياضي، أراقص الكرة وأتقاذفها بين قدميّ، فرآني أحدهم وكان قد دُعي إلى مدرستنا في هذا اليوم، تقدم نحوي متحمسًا، يلوح بيديه تشجيعًا لما رأى من مهارة طفل في العاشرة، لكن ما إن اقترب مني وملأ عيونه من

قبح وجهي حتي هدأ تشجيعه وفَتُرَ حماسه، اكتفى بوضع يده على رأسي بحركات عبثية كأنما يمسح على رأس يتيم، وانصرف دونما تعليق..!

تذكرت أيضًا يوم عودتنا من بيت جدي بالقطار، كانت زيارة سريعة، اعتادت أمي القيام بها كل شهر؛ لتصل رحمها، انطلق صوت بائع الحلوى مرغِّبًا في سلعته، نظرتُ إلى أمي فأعطتني جنيهًا تقدمت به نحو البائع الذي أطال النظر إليّ وهو يعطيني ما طلبت، انطلقت راجعًا حيث تجلس أمي، فظهر أمامي شاب ما إن وقعت عينه عليّ حتى قال متأففًا:

_ أعوذ بالله ..

بينما قال رجل طاعن في السن ناصحًا إياه -بصوت ثقب أذني-، وهو يتجنب النظر إليّ:

_لا تقل كذلك يا بني، بل قل الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به غيري.

عدت إلى مقعدي، وحديثهما يتردد في أذني كطنين نحلة لا ينقطع.

نفضتُ عن ذاكرتي تلك المشاهد التي تتغذّى على روحي، لقد اشتد المطر مرة أخرى، خرجت من الغرفة بخطوات متثاقلة، أمي في صحن الدار تحيك قميصًا لطفلها الرضيع الذي تضعه على سرير خشبي بجوارها، لقد كان رضيعها أحسن حظًا مني، يوم أن رزقها الله به فرحت جدتي وتهلّل وجهها، قالت وهي تنظر إليّ بحزن وأسى:

_هذا عوض الله لكم..!

التصقت بباب الدار، نظرت من ثقبه أراقب الأولاد وهم يلعبون، بيد مرتجفة أمسكت مقبض الباب الخشبي الذي أكلته الشمس، أدرته ببطء، صنعت فتحة صغيرة أتطلع بها للخارج، اتسعت شيئًا فشيئًا، رآني أحدهم، فقال ساخرًا:

_ها قد جاء وجه البومة، الآن سيكف المطر عن السقوط.

انسحب الأولاد عائدين إلى بيوتهم خوفًا من أن ينالهم شؤم وجه البومة، رحت ألعب وحدي تحت شجرة الصفصاف، أستمتع بالمطر، وأغني بصوت مبحوح ..

يا مطرة رخي رخي .. رخي على سطح قلوبنا
رخي رخي يا مطرة .. نضفي بطهرك توبنا
يا مطرة رخي رخي .. امحي عيوبنا ودمعتنا